"لم تتركنا عنك إلي الإنقضاء (العدم)"

(القداس الإلهي)

تاريخ الإنسان: العدم. الوجود. الموت. الخلود.

دكتور

رؤوف إدوارد

٢٠١٧

”لم تتركنا عنك إلي الإنقضاء (العدم)“

(القداس الإلهي)

تاريخ الإنسان : العدم. الوجود. الموت. الخلود.

الفلسفات والديانات القديمة تؤمن بأزلية الكون والمادة وخلود الإنسان. أما المسيحية فتؤمن بأن الإنسان خُلِقَ من العدم أو اللاوجود (القديس أثناسيوس الرسولي). ما خُلِقَ من العدم لا يقدر علي إستمرار الوجود والخلود بقدراته الذاتية. لذلك فالإنسان فانٍ بطبيعته. بحضور كلمة الله (الأقنوم الثاني في جوهر لاهوت الله الواحد مثلث الأقانيم) وتعطفه علينا دُعينا من العدم إلي الوجود في الفردوس. إستقر عند آباء الكنيسة أن الفردوس لم يكن هو الوطن الأبدي للإنسان. فهو وطن هشٌ، وقابل للدمار الطبيعي، وكذلك النظام الكوني كله. التغيير – الإنتقال من عدم الوجود إلي الوجود – هو أصل في الإنسان إلتصق بطبعه (ق. غريغوريوس النيسي)، لذلك فإن التغييروعدم الثبات يؤدي إلي إنحلال الوجود الإنساني والرجوع إلي العدم. هذا هو الموت الطبيعي. ولأن أساس العلاقة بالله عند خلق الإنسان هي النعمة، لذا كانت غاية الخلق هي دعوة الله للإنسان من الوجود الطبيعي – أي العدم – إلي الوجودوالحياة حسب صورة الله – في الفردوس، ثم دعوة الإنسان للحياة الخالدة الأبدية في السماء. فالموت الطبيعي يسبق إنتقال الإنسان من الفردوس إلي السماءوالحياة الأبدية.

خُلقَ الإنسان علي ”صورة الله“، وهذا أساس الحياة الأخلاقية في الإنسان. التغيير وعدم ثبات طبيعة الإنسان، جعل حرية الإختيار عند الإنسان قادرة أن تميل إلي الخير أو الشر. إذا حفظ الإنسان النعمة الإلهية، واستمر صالحاً، إستطاع الإحتفاظ بحياته في الفردوس بلا حزن، ولا ألم، فضلاً عن موعد الخلود – الحياة الأبدية – في السماء عندما ينتقل بالموت الطبيعي من صلاح الوجود في الفردوس إلي صلاح الوجود في

السماء. عدم ثبات الإنسان في الخير حسب ''صورة الله في الإنسان'' يُحسب تفريطاً في النعمة – إستهانة بعطية الصورة الإلهية في الإنسان – وخروجاً علي غاية الخلق. هذا هو التعدي والخطية. وبالموت ينتقل الإنسان من شر الحياة الأرضية إلي الحالة الطبيعية الأولي وهي العدم والفناء واللاوجود. الموت عندئذ يُسمَّي موت الخطية، مقارنةً بالموت الطبيعي للإنسان. إن الخطية والتعدي أعطى سلطاناً وسيادة شرعية للموت علي الجنس البشري. وبذلك أغلق الإنسان علي نفسه بموت الخطية في دائرة العدم، أي فقدان الشركة في مصدر الحياة. وبالتالي أصبح لا مجال له في البقاء في الفردوس وطرد خارجاً. فبطبيعة الحال متى تجرد الإنسان من معرفة الله عاد إلي العدم. ولكن هذا لم يحدث وسنري لماذا لم يفني الإنسان.

كان المفروض– حسب خطة الله للإنسان أن يتأمل كيانه كصورة الله فيدرك مِن تأمل تلك الصورة حقيقة وجود الكلمة، والكلمة يُعلِن عن ذاته، وعن الآب. خطة الله للإنسان هي أن يحيا ليعرف: يختبر الحياة والوجود حسب صورة الله أولاً، حينئذ يأخذ المعرفة. يأكل من شجرة الحياة، لكي يحيا حياة حقيقية تُعطِي له المعرفة الإختبارية النابعة من الحياة. فالوجود حسب صورة الله يُكوِّن معرفة إختبارية للحق نابعة من الحياة في الحق. أما الخطية فبحسب رؤية كل آباء الكنيسة هي ضد نعمة الله. هي إستهانة بعطية الصورة الإلهية. الخطية لم تكن إعتداءاً علي الناموس الإلهي، لأن الناموس لم يكن قد أُعطِّي بعد. الشريعة كانت في قلب الإنسان (الصورة الإلهية)، ثم أُعيد كتابتها علي لوحي الحجر. دعَّم الله النعمة المعطاة للإنسان بالوصية التي قدمها إليه. الوصية جاءت تدعَّم النعمة لا لكي تخلق النعمة. فالنعمة سبقت الوصية والناموس.

الإنسان وللأسف لم يشأ أن يحيا ليعرف، بل أراد أن يعرف لكي ما يحيا. وأكل مِن شجرة معرفة الخير والشر قبل أن يأكل مِن شجرة الحياة. لذلك تعرَّى من الحياة حسب الصورة الإلهية. إن الخطية تبدأ بالمعرفة الكاذبة التي وُلِدت من الذات الإنسانية وبسبب غواية الشيطان. تحولت الطبيعة الإنسانية من الوجود حسب الصورة الإلهية (فترة الفردوس) إلي الوجود حسب العدم (بعد طرده إلي الأرض). الإنسان طلب المعرفة بعيداً

عن الشركة في الحياة مع الله فتوغل في إدراك عدميته. عندما تأمل صورته بدون الله لم يجد فيها الله الكلمة، وإنما وجد فيها حالته الطبيعية الأولي – أي العدم. فزرع الإنسان الأفكار الخاطئة عن نفسه وعن الله وسقط في عبادة الأوثان. الإنسان خَلق الشر. الشر هو وليد الفكر البشري ويحمل سمات الإنسان خالقه – أي العدم. ملأ الإنسان فراغ حياته بالعدم، الذي هو الشر. الخير يستمد كيانه من الله أصل الوجود. الخير يبقي ولا يفني.

إن المعرفة التي إقتناها الإنسان بعيداً عن الشركة مع الله، تنبع من خبرة الإنسان حيث يسيطر الموت وهي خبرة لا يمكن فصلها عن مصدرها وأهم سماتها الخوف من فقدان الجسد وعدم البقاء. هذا ما يجعل الإنسان يلتصق أكثر بما يراه ويحسه ويسمعه من رغبات الجسد المتنوعة. إننا بعد الطرد من الفردوس نعيش في زمان المعرفة المكتسبة خارج الفردوس وبدون الشركة مع الله، لذلك يتعذر علينا أن نرى الله هو مصدر الحياة، في نفس الوقت الذي نظن فيه أننا نحيا ونستمر في البقاء بواسطة المعرفة المكتسبة. إن غاية الحياة الروحية الأرثوذكسية هي التحرر من المعرفة المكتسبة للإنسان ومزجها بالمعرفة التي من الله لتُطَّهرها ويصبح للإنسان معرفة واحدة صالحة.

ويكمل القديس أثناسيوس أنه كان أمرٌ غير لائق أن يهلك أولئك الذين كانوا وقتاً ما شركاء في صورة الله. إنَ ترْك الله للبشرية الساقطة التي خُلِقَت عاقلة وأصبحت الصورة الإلهية من مكوناتها، لمصيرها بالفناء والرجوع إلى العدم، لا يُعلِن صلاح الله بل ضعفه (حاشاً). لذلك فإن صلاح الله ونعمة الشركة في الكلمة وقوتها هي سبب بقاء الإنسان وعدم فناء الجنس البشري بعد السقوط. فما الفائدة من خِلقة البشر بدايةً ، ثم تركهم يفنون إذا أخطأوا. "لم تتركنا عنك إلي الإنقضاء (الفناء)" (القداس الباسيلي). لذلك فمن مبادئ المسيحية الأرثوذكسية أن الكون لا يحيا ويتحرك حسب قوة القانون الطبيعي وحده، وإلا كان مصيرنا الآن هو العدم. ولكنه يحيا حسب نعمة الله التي تضبط كل الكائنات ولذلك السبب وحده ظل الإنسان حياً بعد سقوط آدم لأنه نال نصيباً في الكلمة – القدرة العاقلة للآب وصورته – عندما خُلِقَ علي صورة الله والتي إذا تعذر على

الإنسـان معرفته صـار مثل البهائم العديمة النطق. إن أمانة الله نحو خليقته تراث أصيل في علاقة الله بالإنسـان. لذلك عندما تقسـو الأيام علينا ... لأسباب قد لا نعرفها ... فإنها ليست بعيدة عن التدبير الالهي.

والسبح لله.

بقلم: د. رءوف إدوارد